



مواجهة مؤجلة منذ ثلاثة عقود روسيا الولايات المتحدة الناتو

أحمد دهشان



مواجهة مؤجلة منذ ثلاثة عقود روسيا.. الولايات المتحدة.. الناتو

”لأكثر من عقدين من الزمن، يعمل الناتو على بناء شراكة مع روسيا، وتطوير الحوار والتعاون العملي في المجالات ذات الاهتمام المشترك. تم تعليق التعاون بين الطرفين منذ عام 2014؛ ردًا على ضم روسيا غير القانوني وغير المشروع لشبه جزيرة القرم في أوكرانيا، وهو الأمر الذي لن يعترف به الناتو أبدًا. تظل قنوات الاتصال السياسية والعسكرية مفتوحة؛ حيث تمتد المخاوف بشأن نمط الأنشطة العسكرية والخطاب العدواني والمزعزع للاستقرار من طرف روسيا، إلى ما هو أبعد من أوكرانيا“.

بهذه العبارة وصف حلف شمال الأطلسي (NATO) العلاقة مع روسيا، وقبل الخوض في تفاصيل المواجهة الحالية بين الطرفين، التي تمثل أوكرانيا مجرد عنوان لها، قد يكون من المفيد المرور- ولو سريعًا- على مراحل تطور هذه العلاقة لفهم ما يحدث حاليًا.

من الحلف الأنجلوسكسوني بدأ كل شيء

في الرابع من أبريل (نيسان) 1949، وقّعت في واشنطن العاصمة ما تسمى «معاهدة شمال الأطلسي»، التي أصبحت أساسًا لتحالف عسكري ثلاثي بين (الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، والجمهورية الفرنسية)، ليتمدد على عدة مراحل ليصل عدد أعضاء حلف شمال الأطلسي (NATO) اليوم إلى (30) دولة، من أمريكا الشمالية حتى أوراسيا.

يرجع كثيرون الانطلاقة الأولى لتشكيل هذا الحلف إلى خطاب ونستون تشرشل، الذي ألقاه في كلية وستمنستر في فولتون، في ولاية ميسوري الأمريكية، في الخامس من مارس (آذار) 1946، والذي أطلق فيه عبارته الشهيرة "الستار الحديدي"، في وصف الوضع الجيوسياسي الجديد الذي تشكل بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبا بقيادة الاتحاد السوفيتي، قائلاً: "من شتيتين في بحر البلطيق إلى ترييستا في البحر الأدرياتيكي، تشكل ستار حديدي عبر القارة"، مشيداً بالولايات المتحدة، التي وصف دورها بأنه على "رأس قمة القوة العالمية"، ناصحاً إياها بتشكيل تحالف عسكري لمواجهة الروس؛ لأنهم- وفقاً لرأيه- "لا يحترمون سوى القوة، ولا شيء يجعلهم لا يحترمون الآخر سوى ضعفه العسكري"².

كان يجلس خلف تشرشل، الرئيس الثالث والثلاثون للولايات المتحدة هاري ترومان، الذي استمع إلى خطابه باهتمام، وحيّاه بعد الانتهاء منه بحرارة كدليل على تأييده لما ورد فيه، وفي عهده تأسس الحلف، وظهر بعدها للوجود مصطلح «الحرب الباردة».



تشرشل يلقي خطابه في كلية وستمنستر في فولتون، في ولاية ميسوري الأمريكية، ويجلس خلفه الرئيس الأمريكي ترومان
- المصدر The National WWII Museum

لم يرد الزعيم السوفيتي القوي آنذاك يوسف ستالين على هذا الحلف بتشكيل تحالف مضاد، مدرّجًا- بشكل مبكر- أن دخول الاتحاد السوفيتي في سباق تسلح مع الغرب سيؤدي إلى تراجع قدراته الاقتصادية. وظل مقتنعًا بما حصلت عليه روسيا بعد الحرب العالمية الثانية من أراضي أعادت إليها مساحتها السابقة في العهد الإمبراطوري إلى حد بعيد، كما لم يكن متحمسًا لتحول بلدان أوروبا الشرقية غير السوفيتية إلى الشيوعية، وكان بحسب المؤرخ الروسي أندريه فورسوف، يعتقد "أنه من الأفضل إقامة أنظمة يسارية قومية محايدة في هذه البلدان، ولا داعي لتحويلها إلى الشيوعية، واستفزاز الغرب وتوحيده ضد روسيا"³، ولكن الانقلاب الذي قاده الزعيم التشيكي كليمنت غوتوالد، ورغبة بقية الشيوعيين في الوصول إلى السلطة، حال دون ذلك.

كان من أولى نتائج تشكيل حلف الناتو، بدء الحرب الكورية (1950-1953). وبعد وفاة ستالين وتوقف الحرب، تقدمت موسكو، في فبراير (شباط) 1954، بطلب لتوقيع "معاهدة الأمن الجماعي الأوروبية"، التي تشمل فرنسا وبريطانيا، لتجديد تحالفهم الذي تشكل في أثناء الحرب العالمية الثانية في مواجهة هتلر. تم رفض الطلب؛ لأن كلا البلدين أصبح بالفعل عضوًا في حلف عسكري جديد؛ ولذلك تقدمت وزارة الخارجية السوفيتية، في 31 مارس (آذار) 1954، بمقترح للانضمام إلى حلف الناتو، شريطة أن يعلن الحلف "التزام الحياد بشأن مواقع النفوذ التي تشكلت بعد الحرب العالمية الثانية، وعدم التدخل في الشؤون

السياسية الداخلية لأعضائه، وأن تتوحد قوى الحلف في مواجهة المشكلات العالمية، وتنظيم العلاقة العسكرية بين بلدانه". وتم رفض الطلب، كما هو متوقع⁴.

في التاسع من مايو (أيار) 1955، انضمت ألمانيا الغربية إلى حلف الناتو، وقد شكل هذا الحدث نقطة فاصلة دفعت قادة الكرملين إلى التخلي عن سياسة ستالين بعدم التورط في سباق تسلح مع الغرب، وتم التوقيع في العام نفسه، في العاصمة البولندية وارسو، على "معاهدة الصداقة والتعاون والمعونة المشتركة"، التي باتت تعرف باسم «حلف وارسو»، لتشكيل تحالف عسكري للكتلة الشرقية بقيادة موسكو.



الدول الأعضاء في «حلف وارسو» الذي ضم تسعة أعضاء، وانسحبت منه ألبانيا عام 1968

أحلام تحطمت على صخرة الحقيقة

عندما تولى السلطة الزعيم السوفيتي الرابع ليونيد بريجنيف (1964-1982)، حدث نوع من التفاهم بين كلا الحلفين العسكريين الكبيرين، لتظل الحرب بينهما "باردة"، وتدار على أراضي الآخرين، ودخل الاتحاد السوفيتي في هذه الفترة في ما يسمى "عصر الجمود". تلا ذلك تولي

المُسئِن للسلطة ووفاتهم السريعة دون تحقيق شيء يذكر؛ يوري أندروبوف (1982-1984)، ثم قسطنطين تشيرنينكو (1984-1985)، حتى جاء ميخائيل غورباتشوف، الشاب نسبيًا (تولى السلطة وكان يبلغ من العمر 54 عامًا).

تخيل غورباتشوف أن مشكلة روسيا مع الغرب تعود إلى "سوء فهم"، وأن هناك حاجة إلى مبادرة "حسن نية" من روسيا، وبعدها سيصبح كل شيء على ما يرام بين الطرفين. بعدما قدم عدة "تنازلات" للغرب حسب منتقديه، وصولًا إلى قبول وحدة شطري ألمانيا، ودخولها حلف الناتو مقابل "كلمة شرف" أمريكية عن طريق وزير الخارجية آنذاك جيمس بيكر، الذي وعده في أثناء المحادثات، وفق الدبلوماسي الأمريكي السابق، ومدير وكالة المخابرات المركزية الحالي وليام بيرنز: "أن المصالح السوقية ستكون أكثر أمانًا مع انضمام ألمانيا الموحدة إلى حلف الناتو بدلًا من ألمانيا غير المرتبطة بحلف الناتو، وربما في النهاية بأسلحتها النووية". وقال أيضًا إنه لن يكون هناك تمديد لولاية الناتو أو قواته "بوصة واحدة إلى الشرق" من حدود ألمانيا الموحدة⁵.



لقاء وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر بالزعيم السوفيتي الأخير ميخائيل غورباتشوف في موسكو يوم 9 فبراير/ شباط 1990
- المصدر (The Burning Archive)

بعد نهاية الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفيتي، بدأ أن العلاقات بين الناتو وروسيا في طريقها- لأول مرة- إلى التحسن، وذلك عندما انضمت روسيا إلى مجلس تعاون شمال الأطلسي عام 1991، ثم خليفته مجلس الشراكة الأوروبية الأطلسية (EAPC) عام 1997، الذي يضم جميع أعضاء الحلف، والدول الشريكة في المنطقة الأوروبية الأطلسية. كان التعاون العملي بين الطرفين قد بدأ بعد انضمام روسيا إلى برنامج الشراكة من أجل السلام (PfP)، ونشر قوات مشتركة لدعم

عمليات السلام التي يقودها الناتو في غرب البلقان في أواخر التسعينيات. كما تأسست العلاقة بين الطرفين وفق إطار عمل المجلس المشترك الدائم بين الناتو وروسيا (PJC) عام 1997. تعرض هذا التعاون الناشئ لأول ضربة أدت إلى تراجعته عام 1999، في عهد الرئيس الأسبق بوريس يلتسن، على إثر أزمة كوسوفو وتدخل الناتو لدعمها، وانسحاب روسيا من المجلس⁶.

عام 2000، صعد فلاديمير بوتين إلى السلطة، وكان كسابقه يحدوه الأمل في عقد علاقة تحالف، أو على أقل تقدير تفاهم مع الغرب والناتو، وقرر استعادة العلاقات مع الحلف من خلال آلية تعاون جديدة عام 2002، عبر المجلس المشترك بين الناتو وروسيا (NRC)، ليكون منتدى للتشاور بشأن القضايا الأمنية الآنية، وتوجيه التعاون العملي في مجموعة واسعة من المجالات، وأصبح لدى الطرفين بعثة تمثيل دبلوماسي، وبعثة اتصال عسكري، وافتتح الناتو مكتباً إعلامياً له في موسكو⁷.



صورة تجمع الرئيس الروسي بوتين مع الأمين العام السابق لحلف الناتو أندرس فوغ راسموسن

مرة أخرى، توترت العلاقة من جديد بين روسيا والناتو بعد قمة بوخارست عام 2008، على إثر قبول الحلف مبدأ التفاوض مع جورجيا وأوكرانيا للانضمام إليه. وفي أبريل (نيسان) 2014، علق الناتو جميع أشكال التعاون المدني والعسكري العملي؛ ردًا على "التدخل العسكري الروسي والأعمال العدوانية في أوكرانيا، وضمها غير القانوني وغير المشروع لشبه جزيرة القرم"، حسب وصف الناتو. وفي أكتوبر (تشرين الأول) 2021، قررت روسيا تعليق عمل بعثتها الدبلوماسية لدى الناتو،

وطلبت من الأخير إغلاق مكتب معلوماته، وتعليق عمل بعثة الاتصال العسكري الخاصة به في موسكو.

تمددت "البوصة الواحدة" إلى (1,177,459) كم²، وتوسع الناتو بدءًا من 12 مارس (آذار) 1999، وضم على عدة مراحل: (التشيك - المجر - بولندا - بلغاريا - إستونيا - لاتفيا - ليتوانيا - رومانيا - سلوفاكيا - سلوفاكيا - ألبانيا - كرواتيا - الجبل الأسود). ومنذ عام 2008، قبل مبدأ التفاوض، لضم جورجيا وأوكرانيا. وفي عام 2020، طرح فكرة ضم فنلندا والسويد، ومنذ تلك اللحظة ظل الجدل بين روسيا التي تتحدث عن "خيانة" أمريكا لكلمة "الشرف"، ورد الأخيرة بعدم وجود أي نص مكتوب بخصوص هذا "الوعد" الروسي المزعوم، وأن أحاديث المسؤولين السابقين غير الموثقة غير ملزمة للإدارات التالية ما دامت لم تُوثق توثيقًا قانونيًا.



الدول الثلاثون الأعضاء في حلف شمال الأطلسي- الناتو

ما لم يدركه قادة الكرملين المتعاقبون أن الحلف لم يتأسس لمواجهة الشيوعية، أو الاتحاد السوفيتي ككيان سياسي ممثل لهذه الأيديولوجية. لقد كان تشرشل واضحًا في حديثه عندما قال: "من شتيتين في بحر البلطيق إلى تريستا في البحر الأدرياتيكي". لقد ذكر الجيوبوليتيك قبل الأيديولوجية، وهو ما أدركه الروس متأخرًا؛ إنه صراع على روسيا ودورها في أوروبا، بغض النظر عن يحكمها، والأيديولوجية التي تتبناها.



بلدان الكتلة الشرقية عام 1946

لماذا الآن؟!

لعل السؤال المطروح هذه الأيام، لماذا الآن؟! لماذا قررت روسيا اتخاذ هذه المواقف المتشددة تجاه توسيع الناتو، وتمسكها بضرورة الحصول على "ضمانات" قانونية من الحلف بعدم التوسع شرقًا، بل العودة إلى حدود عام 1997، أي إلى ما كان عليه بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، وهو طلب يبدو غريبًا، ومن المستبعد جدًا قبوله أمريكيًا.

للإجابة عن هذا السؤال، يمكن العودة إلى تقرير سابق بعنوان «[ديسمبر المشؤوم.. كيف أراد بوتين أن يغير قدر روسيا عبر أوكرانيا](#)» الذي تم فيه توضيح دوافع روسيا من وراء التصعيد الأخير، وشعور بوتين بأن لديه مهمة أخيرة عليه أن يقوم بها ليحقق ما يطمح إليه من مجد، ومع أن أوكرانيا وجورجيا فعليًا لا يمكنهما الانضمام إلى حلف الناتو وفق شروطه؛ لكونهما في حالة صراع أهلي داخلي، ونزاع خارجي مع روسيا، فإن الأخيرة لديها تخوفات واضحة من أن يصبح كلا البلدين متمتعًا بمزايا الناتو دون العضوية، وورقة الانضمام إلى الحلف أشبه بسيف غربي مُصَلَّت على رقبة روسيا، وهو ما تم توضيحه في دراسة سابقة بعنوان «[المواجهة الروسية الغربية على حدود أوكرانيا](#)» يمكن العودة إليها أيضًا.

لكن بعيدًا عن الشأن العسكري، وتخوفات روسيا التي تبدو منطقية، هناك أمر آخر لا يقل أهمية عنه؛ وهو تحول هذه البلدان اقتصاديًا وثقافيًا باتجاه الغرب بشكل كامل، وفقدان روسيا القدرة المستقبلية على التأثير فيها وحصارها اقتصاديًا وثقافيًا خارج حدودها، لتجد نفسها مضطرة إلى الاختيار بين الارتهان لجارتها القوية الصين، أو السير في ركب الغرب، وهو ما يسعى الأخير فعليًا للقيام به تدريجيًا، ويوليه الأهمية قبل انضمام تلك البلدان إلى حلف الناتو، حسب وجهة النظر الروسية.

الدوافع الروسية مركبة ومتعددة، فهي عسكرية، واقتصادية، وجيوسياسية، وإستراتيجية مستقبلية، وثقافية، وبعضها الآخر ذاتي يخص حسابات بوتين لتاريخه الشخصي، وحشد قوى الشعب الروسي خلفه؛ لكل ذلك تضغط روسيا بكل قوتها، ولديها شعور بأن هناك فرصة ما لتحقيق كل أو بعض ما تريده، في ظل عدم قدرة الولايات المتحدة- وفق الاعتقاد الروسي- على فتح جبهتين في وقت واحد مع موسكو وبكين، والضغط الاقتصادية التي نتجت عن تفشي وباء كوفيد-19، وعدم وجود موقف غربي موحد بشكل حقيقي بعيدًا عن الأحاديث والتصريحات المعلنة.

وجهات نظر روسية

يركز هذا القسم من الدراسة على ذكر أبرز وجهات النظر الروسية لكبار المنظرين والمفكرين الروس القريبين من الكرملين، وتقييمهم للوضع الحالي؛ لتتشكل لدينا صورة أكثر وضوحًا لوجهة النظر الروسية بشأن الوضع الحالي.

يعتقد **ديمتري سوسلوف**، نائب مدير مركز الدراسات الأوروبية والدولية الشاملة، أن الولايات المتحدة في موقف ضعف، ولا يمكنها الدخول في مواجهة مفتوحة مع روسيا في هذا الصراع الحالي، ويبنى تصوره هذا على العناصر التالية:

أولاً: أدركت الولايات المتحدة أخيرًا أنه لن يكون من الممكن إلحاق هزيمة إستراتيجية جديدة وسريعة بروسيا، وإخراجها من اللعبة (في عهد أوباما، كانت هذه الأوهام لا تزال قائمة). **ثانيًا:** بدأت الولايات المتحدة تدرك محدودية مواردها، التي لن تكون كافية لزيادة الضغط على بكين وموسكو في الوقت نفسه، وضرورة تركيزها على محاربة العدو الأساسي، الصين. **ثالثًا:** تخشى واشنطن من أن التقارب بين روسيا والصين، بما في ذلك المجال العسكري، سيقوي كلا الجانبين، ويجعل الصين خصمًا صعبًا، في حين أنه في المستقبل المنظور لا يتوقع حدوث صراع جيوسياسي مفتوح بين موسكو وبكين، حيث ساد ذلك الرأي في واشنطن خلال فترتي أوباما وترمب.

بناءً على ما سبق، ووفق **سوسلوف**، "أصبحت إدارة بايدن مهتمة بتثبيت المواجهة مع روسيا، وإبقائها عند مستواها الحالي، ومنع مزيد من التصعيد الذي لا يمكن السيطرة عليه"، حيث تسعى الولايات المتحدة إلى: "تجنب مزيد من تفاقم الوضع في العلاقات بين روسيا وحلف شمال الأطلسي بشأن أوكرانيا، حتى لا يتم تفريق القوات وتحويل موارد إضافية (بما في ذلك العسكرية) إلى أوروبا، وإخراجها من اتجاه المحيط الهادئ، وكذلك إلى وقف التقارب بين روسيا والصين في المجال العسكري، الذي سيصبح حتمياً في حالة حدوث مزيد من التصعيد في العلاقات الروسية الغربية". في الوقت نفسه، فإن الولايات المتحدة ليست مستعدة لتحسين العلاقات مع روسيا وتقليل خطابها المعادي؛ لأن العامل السياسي الداخلي يعمل ضد هذا الاتجاه: "أي خطوة بناءة تجاه روسيا في ظل ظروف استقطاب النظام السياسي الأمريكي الحالي سيكون لها ثمن باهظ لمن يتخذها". بالإضافة إلى ذلك، "يهيمن على واشنطن اعتقاد أن الوقت الإستراتيجي إلى جانب أمريكا، وأن الضغط المستمر على روسيا، إلى جانب عوامل أخرى (الركود الاقتصادي، وتغير نمط تفكير الأجيال في الاتحاد الروسي، وزيادة الخلل بين روسيا والصين) سيكون لصالح الولايات المتحدة"، وهكذا سيكون لدى واشنطن ضمانة مستقبلية بأن تتغير السياسة الروسية بطريقة تعود بالنفع على الولايات المتحدة.

يختتم **سوسلوف** تحليله بالقول: "وهكذا حددت إدارة بايدن مسارًا للحفاظ على المواجهة مع روسيا على المستوى الحالي، دون تقويتها أو إضعافها بشكل حاد، على أمل أن يسمح ذلك- كما يقولون في واشنطن- بضبط العلاقات مع موسكو (أي عدم تشتيت انتباههم مرة أخرى)، وتركيز الموارد الرئيسية والاهتمام على الصراع الوجودي مع الصين"⁸.

في المقابل، انتقد **ألكسندر كوليين**، الباحث في مركز الأمن العالمي الروسي، ما سماه سياسة "التحفظ" الروسية المبالغ فيها بإعلان أهدافها الحقيقية من وراء التصعيد الأخير، وذلك بالقول: "على روسيا أن تخبّر شعوب المنطقة والعالم بصراحة أنها تعتزم استعادة مساحتها الأمنية الخاصة في أوراسيا، لتجعل منها منطقة للسلام والازدهار"، وضرورة إعلان المكونات الحتمية لهذا الفضاء، التي تتكون- حسب رأيه- من: "بنية تحتية عسكرية مشتركة، وتكامل الاقتصادات، وتنسيق السياسات الخارجية، ولغة مشتركة مع الحفاظ على اللغات الوطنية وتطويرها، وأيديولوجية مشتركة للأمن والسلام والازدهار". كما يرى أن الوقت الحالي يعمل لصالح روسيا، وأن هناك فرصة لا بد من عدم تفويتها، منتقدًا سياسة "التردد" الروسية حسب وصفه، وذلك عبر طرح سؤال مهم، جاء فيه: "بعد كل شيء، لنكن صادقين، في الواقع هل هذا هو الهدف الحقيقي الواضح لسياسة روسيا الخارجية اليوم؟ أم أنها ليست كذلك، وسنعود من جديد إلى سياسة الرقابة الذاتية؟". ثم يكمل: "الرقابة الذاتية الوطنية، والمراوغة المستمرة، والمخاوف

الحمقاء من التعبير الصريح عن أهدافنا في عالم رقمي؛ أمر عبثي يسمح للآخرين بتأويل أهدافنا وتفسيرها بما يتوافق مع مصالحهم". يختتم **كولين** رأيه فيما يحدث حاليًا بتوجيه نقد إلى سياسات الكرملين، وفي ذلك يقول: "من السخف الحديث عن أن الأيديولوجيا تمثل الخطر الرئيسي لتحقيق الأهداف الروسية. بدون أيديولوجية صريحة وجذابة، فإن أي تحرك روسي سيقابل باستمرار بالنقد؛ لانتهاكه ما تسمى الحقوق السيادية للآخرين، والعقوبات، وأهم من ذلك، تشتيت جميع سكان بلدان الاتحاد السوفيتي السابق عبر دعايات السياسيين المحليين والإعلام الغربي". بدلًا من ذلك، يطرح ضرورة الالتزام بمبدأ "المصارحة" في السياسة الخارجية الروسية، وشرح ما يسميه: "أهداف التوسع الروسي الإيجابي، وتسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية؛ لتبديد أي شك بخصوص سياسات الاتحاد الروسي الحالية". كما دعا إلى الترويج لنظرية "العالم الروسي"، للفيلسوف بيوتر شدروفيتسكي، التي تدعي وجود "عالم" روسي ثقافي في جوارها القريب بُني عبر "حضارة" روسية، لا بد من استعادتها من جديد⁹.

فيودور لوكيانوف، مدير وحدة الأبحاث السياسية في منتدى فالداي الدولي، تحدث بصراحة عن كون أوكرانيا مجرد عنوان لمعركة "أكبر" منها، قائلًا: "بالنسبة إلى روسيا، فكل ما يحدث لا يخص القضية الأوكرانية؛ بل- على وجه التحديد- مبادئ الأمن الأوروبي، ومراجعة ما كان يراه الغرب مسمومًا به في السابق، أولًا وقبل كل شيء، حق الناتو غير المحدود في نشر نفوذه". أما بالنسبة إلى أوكرانيا، فيرى أن أوكرانيا

تمثل قيمة حيوية بالنسبة إلى روسيا، "لكن الخلاف بشأنها مجرد مظهر من مظاهر متعددة للمخطط الأساسي المرتبط بنتائج المواجهة في النصف الثاني من القرن العشرين"، غير أنه لا يعتقد أن هناك إمكانية لتوصل روسيا إلى تفاهم في الوقت الحالي مع الغرب بشأن هذه المسألة، ويرجع ذلك إلى ما يسميه: "الفجوة الكبيرة في الإدراك بين الطرفين"، وهو ما يستدعي- حسب رأيه- "حدوث تصعيد جديد وخطير من أجل إجبار جميع الأطراف على التخلص من قيود الخيال؛ للبحث دقًا عن بنود منطقية لهذه الاتفاقيات"¹⁰.

ديمتري نوفيكوف، نائب رئيس قسم العلاقات الدولية في جامعة البحوث الوطنية، لا يعتقد أن المطالب الروسية قابلة للتطبيق، ويقول في ذلك: "من الصعب تخيل تخلي الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي عن دورهما المركزي في أوروبا، والتخلي عن إمكانية توسيع التحالفات الغربية". ومع ذلك، فإن "اللامكان للتراجع"، الذي تمسك به الرئيس الروسي، "يجعل المرء يفكر في جدية النيات الروسية لتحقيق ما هو معلن من أهداف في المستقبل القريب، ويطرح كذلك سؤالًا عن مدى واقعية قبول الولايات المتحدة للإنذار الروسي"، لكنه- في المقابل- يرى أن التوتر الذي وصلت إليه الأحداث من جانب روسيا، وعدم حصولها على ما أعلنته بلا أي إمكانية للتفاوض بشأنه، سينظر إليه حال عدم تحقيقه بأنه "هزيمة لروسيا في مجال السياسة الخارجية"؛ لذلك- وفق رأيه- "لا خيار آخر أمام روسيا سوى مزيد من التصعيد".

يعتقد **نوشيكوف** أن حسابات الكرملين مبنية على أساس أن "الظروف الجيوسياسية بالنسبة إلى الولايات المتحدة تزداد سوءًا، وتلوح في الأفق صراعات وتصعيدات محتملة وشبه حتمية في منطقة آسيا والمحيط الهادئ، وأنه في ظل هذه الظروف فإن التصعيد الأمريكي سيؤدي إلى تشتت الموارد على جبهتين، وهو ما تريد واشنطن تجنبه؛" لذلك "اقترحت واشنطن تلك الصيغة التفاوضية كحل وسط يشمل مسارًا ثنائيًا بين واشنطن وموسكو". ورغم اعتقاده أنها "مناورة" أمريكية لكسب الوقت، وتهدئة غضب موسكو، وأن بايدن قد استرشد بدوافع "ميكافيلية بحتة"، فإن هذا التفاوض "قد يؤدي إلى انفراجه ما، والتوصل إلى حل وسط". يختتم **نوشيكوف** تحليله باستشراف لمستقبل الصراع الحالي، ويرى فيه "معركة" من ضمن عدة معارك أخرى قادمة، وإمكانية التوصل إلى حل "وسط"، مستبعدًا إمكانية قبول الغرب مقترحات موسكو؛ لأنه "لا يمكن للنظام السياسي للولايات المتحدة والغرب في وضعهما الحالي هضمها؛ حيث لا تزال المشاعر قوية في واشنطن بأن روسيا قوة ضعيفة، يمكن الضغط عليها من خلال اغتنام اللحظة المناسبة"¹¹.

قللت النائبة السابقة في مجلس الدوما، ومديرة معهد الإستراتيجيات الروسية، **يلينا بانينا**، من الاعتقاد القائل إن "عدم الرد العسكري الروسي التقني" الفوري سيمثل "هزيمة دبلوماسية"، وبدلًا من ذلك رأت أن "التوقيت ليس هو الشيء الرئيسي في هذا الصراع، بل من المهم أن ندع الآخرين في حالة شد أعصاب دائمة، وترقب وقلق لبعض

الوقت". أما الشيء الأساسي والأكيد فهو أن "الإجابة حتمية، ولكن ليس بالضرورة في غضون الأسابيع القليلة المقبلة". وأهمية الوقت وفقاً لبانينا، هو حاجة الصناعات العسكرية الروسية إلى الوقت؛ حيث تزيد حالياً "الإنتاج التسلسلي لصواريخ كروز الجوالة زيركون (M-22 Zircon) الفرط صوتية المحمولة على الغواصات؛ لضرورة وجود كميات كافية منها لنشرها في أكبر قدر ممكن أمام سواحل أعضاء حلف الناتو، بما في ذلك الولايات المتحدة"¹².

ذكر الباحث في مركز الأمن الدولي الروسي، **ديمتري ستيفانوفيتش**، أوجه الرد العسكري الروسي الذي لوحته به إذا لم يستجب الناتو لمطالبها، حيث تزال روسيا في الأساس قوة برية، وثانياً قوة صاروخية؛ ومن ثم- بحسب رأيه- "فإن نشر مجموعات كتائب تكتيكية في الاتجاه الغربي مع تعزيزات عسكرية بدون إطار زمني محدد بوضوح، سيترك أكبر انطباع لدى الجميع بشأن جدية روسيا". كما أن نشر "مزيد من الصواريخ الموجهة نحو أوروبا، وقواعد الناتو"، سيشكل عاملاً مؤثراً بعدما انسحبت الولايات المتحدة من «معاهدة الصواريخ النووية متوسطة المدى»، مع صعوبة رصد هذه القوات عبر الأقمار الصناعية؛ لأنه- بحسب **ستيفانوفيتش**- "بعد خروج الولايات المتحدة من اتفاقية السماوات المفتوحة، لا يمكن للأقمار الصناعية رصد تحركات الجيش الروسي بالكفاءة نفسها التي كانت توفرها تلك الاتفاقية". ميزة عسكرية أخرى لدى روسيا حسب **ستيفانوفيتش**، وهي انحياز بيلاروس إلى موقف موسكو، بعدما دعمت لوكاشينكو، الذي ظل يتخذ موقف

الحياد من الصراع على أمل دعم الغرب له، وهو ما لم يحدث؛ وعليه يعتقد أن: "الوجود العسكري في بيلاروس يمنح روسيا قدرات واسعة في الضغط على الناتو غربًا، وانطلاق القاذفات الإستراتيجية توبوليف تي يو-22 إم (Tupolev Tu-22M)، في ظل اتفاق موسكو ومينسك على عقيدة عسكرية مشتركة، في إطار دولة الاتحاد المقبلة بينهما"¹³.

الرد الأمريكي المنتظر

على الرغم من كل الدوافع التي تبدو منطقية وراء التصعيد الروسي الأخير، وما يبدو معه أن موسكو في مركز قوة، ولديها خيارات أوسع، وهامش مناورة أكبر من واشنطن، فإن الأخيرة لا يمكنها- بأي حال من الأحوال- الموافقة على الشروط الروسية، ولا حتى بحدّها الأدنى المتمثل في إعلان صريح يعقبه تعهد رسمي بعدم ضم أوكرانيا وجورجيا إلى الحلف.

كما سبق، لا جورجيا ولا أوكرانيا تنطبق عليهما شروط الانضمام إلى الحلف، ورغم تقدم كلا البلدين بطلب رسمي للانضمام منذ عام 2008، فإن الحلف لم يتخذ خطوات جدية لتفعيل هذا الطلب، ولا يبدو أن الولايات المتحدة جادة حقًا في ضمهما، حتى إن كبار المنظرين السياسيين الأمريكيين من المهتمين بالشؤون الأوراسية حذروا من هذه الخطوة، نذكر منهم وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر، ومستشار الأمن القومي الأسبق زبغنيو بريجنسكي،

والمسؤولية السابقة عن ملف روسيا وأوراسيا في الاستخبارات الوطنية أنجيلا ستنت، وكذلك وليام بيرنز، مدير وكالة المخابرات المركزية، وماري إيليز ساروت، المؤرخة المتخصصة في العلاقات الروسية- الأمريكية ما بعد الحرب الباردة، وفيونا هيل، المسؤولة السابقة في مجلس الأمن القومي الأمريكي عن شؤون روسيا. إلا أن الإعلان الأمريكي الصريح بعدم الضم ستكون له عواقب وخيمة ستمتد آثارها إلى ما هو أكبر من كلا البلدين، ومن العلاقة حتى مع روسيا، وأهمها:

- ❖ فقدان بلدان أوروبا الشرقية من الأعضاء السابقين في حلف وارسو الثقة بحلف الناتو والتعاون مع الولايات المتحدة.
- ❖ كسر هيبة الولايات المتحدة أمام أعين العالم، وتشجيع الصين على أن تحذو حذو روسيا في المطالبة بمنطقة أمنية خاضعة لنفوذها في محيطها الإقليمي.
- ❖ إمكانية ابتلاع الصين لتايوان، وضمها دون أن تشعر بأن هناك عواقب عسكرية سترتد عليها في حال اتخاذ هذه الخطوة.
- ❖ الانهيار شبه الحتمي للحكومات الموالية للغرب في جورجيا وأوكرانيا، وباقي بلدان الاتحاد السوفيتي السابق، ووصول حلفاء موسكو إلى السلطة بعد أول انتخابات ستجرى، دون الحاجة إلى تدخل عسكري أو استخباراتي من روسيا.
- ❖ فقدان جميع الاستثمارات الأمريكية في تغيير العقيدة العسكرية، والنظم الاقتصادية والسياسية لهذه البلدان، إلى جانب الاستثمار الطويل الأمد في خلق ثقافة مجتمعية جديدة تسمى

"الروسوفوبيا" (أي مناهضة روسيا وثقافتها وتاريخها)، وتشجيع اللغات الوطنية واللغة الإنجليزية كلغة ثانية، ودعمها على حساب اللغة الروسية، حتى تفقد روسيا مع الوقت تأثيرها الثقافي المهيمن على بلدان المنطقة.

تشجيع التيارات اليمينية والقومية في أوروبا، الرفض لحلف الناتو، والمؤيدة لعلاقات شراكة اقتصادية وأمنية وسياسية مع موسكو، وإمكانية وصولها إلى السلطة في أكثر من بلد أوروبي، وهو ما يهدم الاستثمار الأمريكي في القارة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ستبدو واشنطن أمام العالم أنها خضعت لإرادة موسكو وبوتين، وأنه الزعيم الروسي "القوي" الذي تمكن من "إخضاعها" بعد مرور (21) عامًا على حكمه، كما تمكن بطرس الأكبر من تحويل روسيا إلى إمبراطورية بعد المدة نفسها في الحكم، وهو ما يعني ترسيخًا لسلطته ونهجه من بعده، وتجربًا القوى الأخرى على السياسات الأمريكية ومعارضتها، وشيوع الفوضى في عدة مناطق أخرى، حيث يتوقع أن تزداد عدوانية السياسة الإيرانية وأطماع السياسة التركية في الشرق الأوسط، وكوريا الشمالية في الشرق الأقصى، ولجوء بعض حلفاء الولايات المتحدة، مثل اليابان، إلى بناء قوة عسكرية، وربما نووية، لحماية نفسها بمعزل عن واشنطن.

❁ أخيرًا، لا يمكن للحزب الديمقراطي ولا لبايدن أن يُقدما على خطوة كهذه في ظل الاستقطاب السياسي الداخلي الحاد، واتهامهما للرئيس السابق ترمب بأنه "خاضع" لپوتين، أو "جرو پوتين"، حسب وصف الرئيس الأمريكي بايدن، وسيكون هذا التنازل ورقة انتخابية قوية بيد الجمهوريين قبل انتخابات التجديد النصفى للكونغرس.

لكل هذه الأسباب وغيرها، من غير المتوقع أن تقبل واشنطن- بأي حال من الأحوال- الشروط الروسية، حتى لو كانت لديها قناعة أو رغبة في عدم التصعيد، أو حتى تفهم للمخاوف الروسية، وقد أبدت فهمًا بالفعل لبعضها، وتقدمت بمقترحات لتبديدها، وهو المتوقع أن يكون في ردها المنتظر خلال الفترة المقبلة على الطلبات الروسية.

الرد العسكري الروسي المتوقع وحدوده

هددت روسيا، من خلال الرئيس پوتين، ووزير الخارجية لافروف، وعدة مسؤولين آخرين، برد عسكري "تقني" على حلف الناتو، إذا لم يستجيب لمطالبها، فيما يشبه "الإنذار"، في حين ما زالت الولايات المتحدة تشدد في كل تصريحاتها، منذ بدء الأزمة الحالية، على وجود نية روسية لغزو الأراضي الأوكرانية، فما طبيعة الرد العسكري الروسي المتوقع، وحدوده؟

لا يبدو أن هناك أي نية روسية حقيقية لاجتياح الأراضي الأوكرانية، ولا مبرر يدفعها إلى هذا التصرف الذي يصعب تبريره داخليًا، فضلًا عن

الخارج. الحالة الوحيدة التي يمكن لروسيا فيها التدخل بشكل مباشر هي مهاجمة السلطات الأوكرانية المتمردين في شرق أوكرانيا، وهو أمر مستبعد جدًا قيامها به.

يبدو أن الرد العسكري "التقني" الروسي يعتمد على عدة آليات مختلفة، أو ما تسمى روسيًا بـ "الحرب الهجينة" المتعددة الأوجه، وأبرزها ما يلي:

- ✧ التضييق على حركة مرور السفن الحربية التابعة للناتو وحلفائه في البحر الأسود والبلطيق، والتحرش بها؛ لخلق حالة من القلق لدى جيوش الناتو من الانزلاق إلى حرب شاملة، وهو ما يؤدي إلى تضييق الخناق على حركة القطع البحرية الحربية في كلا البحرين.
- ✧ التحرش الجوي بطائرات الناتو، وعدم السماح لها بأي اختراق- ولو محدودًا- للسماء الروسية، ومضايقتها باستمرار، وكلا الأمرين سبق أن استخدمته روسيا بكفاءة في الحقبة السوفيتية.
- ✧ تقديم مزيد من الدعم العسكري لحلفاء موسكو المتمردين في جورجيا (في منطقتي أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا)، وأوكرانيا (دونيتسك ولوغانسك)، ومولدوفا (بريدنيستروفيا/ ترانسنيستريا وغازاوغزيا)، وتحويل جيوشهم المحدودة إلى جيوش ذات قوة مقلقة لهذه البلدان، وكذلك دعم قوى التمرد الكامنة وتفعيلها (بالتحديد، الروسيون في زاكارباتسكا، في الجنوب الغربي لأوكرانيا، والمتحدثون بالروسية في أوديسا وشاركوف

ودنيبروبتروفسك في شرق وجنوب أوكرانيا؛ أجاريا في جنوب غرب جورجيا ذات الأغلبية الإسلامية، وسمتسخي- جفاختي في جنوب جورجيا ذات الأغلبية الأرمنية)، وتحويل هذا المحيط إلى حالة من الفوضى والنزاعات والصراعات الأهلية التي تدعمها موسكو دون تدخل عسكري مباشر منها، وجعل دول المنطقة وشعوبها- حسب أحد السياسيين الروس- "تلعن اللحظة التي فكر فيها سياسيوها في الانضمام إلى الناتو، أو الاتحاد الأوروبي".



مناطق نزاع مختلفة في بلدان الاتحاد السوفيتي السابق تحت تأثير النفوذ الروسي

تحويل وجود الناتو في الجزء الأوروبي من بلدان الاتحاد السوفيتي السابق إلى عامل زعزعة بدلاً منه عامل استقرار، وإرهاقه بنزاعات وصراعات أهلية وسياسية، واستغلال النفوذ الذي تمتلكه موسكو، وما لديها من حلفاء استثمرت فيهم سنوات طويلة في رومانيا، وبلغاريا، والتشيك، وسلوفاكيا، وباقي بلدان أوروبا الشرقية، وتنشيط سلاح الدعاية في الانتخابات، والقضايا الجدلية الداخلية وتضخيمها؛ لجعل حكومات أوروبا تحت الضغط المستمر، وسط شقاق سياسي داخلي.

نشر منظومات الصواريخ الروسية على حدودها الغربية كلها، وفي منطقة كالينينغراد أو "كونيغسبرغ"، وهي مقاطعة ألمانية الأصل حصلت عليها روسيا تعويضاً لها عما لحق بها من دمار على يد القوات النازية بعد الحرب العالمية الثانية، وغير متصلة جغرافياً بروسيا، وتقع ما بين ليتوانيا وبولندا وبحر البلطيق، ويهدف هذا الإجراء إلى تغطية أوروبا كلها بالصواريخ الروسية القادرة على الانطلاق لأي جزء منها في قلب منظومة الناتو.



منطقة كالينينغراد الروسية أو "كونيغسبرغ" الألمانية السابقة، في قلب أوروبا

✪ نشر القاذفات الإستراتيجية الطويلة المدى المزودة بقدرات نووية في مناطق النفوذ الروسية، وبالتحديد في بيلاروس وسوريا؛ ليتم عبرها تطويق الناتو في شرق أوروبا، وعلى حدوده الجنوبية.



بيلاروس وسوريا حليفتا موسكو المتوقع وضع صواريخ وقاذفات على أرضيهما لتطويق حلف الناتو

✪ إنتاج كميات ضخمة من صواريخ كروز الجوالة زيركون (M-22 3 Zircon) الفرط صوتية (أسرع من الصوت بـ 9 أضعاف)، وتحميلها على الغواصات الروسية التي ستجوب البحار، لتكون قبالة السواحل الغربية، بما فيها الأمريكية؛ لموازنة وجود الناتو بالقرب من حدودها، وامتلاك الولايات المتحدة لحاملات طائرات متعددة.

وضع القوات الروسية على أهبة الاستعداد على حدودها الغربية؛ لوضع بلدان البلطيق وأوكرانيا تحت الضغط المستمر، واستخدام سياسة الغموض الإستراتيجي التي تفتح المجال للتأويل، والاعتقاد بوجود نية روسية وشيكة لاجتياح هذه البلدان؛ لاستنزاف قدرات الناتو عبر نشر قوات مضادة، مع ما يستلزمه ذلك من زيادة في الإنفاق، وتعطيل للإستراتيجية الأمريكية بالتركيز على الصين ومنطقة المحيط الهادئ، وتحملها منفردة ما يترتب على هذه العملية من تكاليف مالية، أو تحميلها لباقي الأعضاء (وهم أوروبيون في الأساس)، وسط أزمة اقتصادية يتوقع تصاعدها، وهو ما يعول عليه الروس في صنع أزمات داخل الحلف، وضغوط شعبية على قادته السياسيين.

إيقاف أي تعاون أو تسهيلات عسكرية تمنحها روسيا للناتو والولايات المتحدة على وجه الخصوص، وكذلك التعاون الاستخباراتي، وهو ما يضعف من قدراته على مراقبة الأوضاع في أفغانستان وآسيا الوسطى.

دفع جيوش الجمهوريات المستقلة من جانب واحد في مناطق النزاع في أوكرانيا وجورجيا ومولدوفا، إلى استفزاز السلطات المحلية في هذه البلدان، وحشرها في الزاوية؛ إذ إنها إذا ردت أو حاولت إنهاء التمرد ستمتلك روسيا جميع الحجج الكافية للتدخل بشكل مباشر، وإذا التزمت الصمت ستتعرض لضغوط داخلية قد تؤدي إلى إسقاطها.

✪ تكثيف عمل القوات الرديفة التي تديرها شركات أمنية/ عسكرية يملكها مقربون من الكرملين، بالتحديد (الفيلق السلافي-مجموعة فاغنر)؛ للتدخل في جميع مناطق النزاع الممكن تدخلها فيها، وذلك لإزعاج الوجود الأمريكي والغربي، وتهديد مصالحهما.



مجنودو الفيلق السلافي في سوريا إلى جانب وجودهم في مناطق النزاع في بلدان الاتحاد السوفيتي السابق - المصدر: (Fandom)

سياسياً، وعلى المستويين الاجتماعي والاقتصادي، يمكن لروسيا زيادة بعض الممارسات التي تقوم بها بالفعل، وتفعيل بعضها الآخر بشكل مكثف؛ لإشاعة الفوضى داخل التحالف الغربي، وتعقيد مهامه، وتبديد طاقاته في صراعات لا تنتهي، ومنها على سبيل المثال:

زيادة الضغط الإعلامي الروسي على الغرب، في ظل امتلاكها عدة فضائيات ناطقة بلغات متعددة، وفضائيات أخرى حليفة، أو يمتلكها مقربون من الكرملين في بلدان أوروبا الشرقية والغربية، واستغلال حالة التراجع الاقتصادي، وقضية اللاجئين، وزيادة معدلات الإنفاق العسكري، وإمكانية انزلاق الأوضاع في أوروبا نحو حرب شاملة قد تكون نووية. يتميز الإعلام الروسي بعدم الالتزام بما تسمى "الصوابية السياسية" في الغرب، وهو ما يجعل ما يقدمه من مواد إعلامية أكثر "إثارة"، وجاذبًا للمتلقي عن الخطاب الذي يبدو "متصلبًا" ونمطيًا للإعلام الغربي، كما أنه يفتح المجال أمام جميع الأصوات المهملة من المنظومة الإعلامية الغربية، ويستغل دوافع بعض الضيوف الشخصية، ونقمتهم على هذه المنظومة لعدم الاهتمام بأطروحاتهم، والمنافسين السياسيين للأحزاب التقليدية من أقصى اليمين إلى اليسار، ولا يهم أن يكون الضيف مؤيدًا لروسيا، المهم أن يكون ضد المنظومة الغربية بكل ما تحمله من قيم، وما تنادي به من سياسات، وما بينها من تحالفات، بشكل أدق، وفق تعبير البروفيسور الأمريكية أنجيلا ستنت (Angela Stent)، في كتابها المهم «عالم بوتين.. روسيا ضد الغرب ومع البقية».

تعطيل أي قرارات قد تصدر من مجلس الأمن الدولي في قضايا تهم الولايات المتحدة وطفائها، على سبيل المثال إدانة كوريا الشمالية لقيامها بتجارب صاروخية جديدة، أو اتخاذ إجراءات ضد

أنظمة سياسية تريد الولايات المتحدة معاقبتها، حتى لو لم تكن حليفة لموسكو.

تعقيد مفاوضات واشنطن مع طهران، عبر تقديم مزيد من الدعم للأخيرة، وتأييد موقفها في ضرورة العودة الكاملة وغير المشروطة إلى خطة العمل الشاملة المشتركة (JCPOA) الموقعة عام 2015، ورفع جميع العقوبات أولًا، ثم الحديث فيما بعد عن القضايا الخلافية الأخرى، وتحميل الولايات المتحدة مسؤولية تعطيل مسار المفاوضات، ويتوقع أن تتخذ بكين الموقف نفسه، وأن تشدد موسكو على هذه النقاط في أثناء الزيارة المرتقبة للرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي.

استخدام سلاح الحرب السيبرانية على نطاق عريض، ودعم أحزاب أقصى اليمين واليسار الأوروبية المناهضة للعولمة والناتو، واستقبال بعض قادتها في موسكو علنًا، واستخدام "سلاح المساومة" ضد كثير من السياسيين الأوروبيين؛ لدفعهم إلى تأييد مواقفها وإعلان رفضهم لتوسع الناتو شرقًا (برعت السياسة الروسية في استخدام سلاح المساومة الذي يسمى بالروسية "كامبارامات - Компромат"، ويعني استغلال نقطة ضعف الشخصيات الشهيرة، والإيقاع بها لامتلاك أدلة تدينها، ومساوماتها عليها لتتخذ عندما تقرر في الوقت المناسب المواقف الداعمة لسياساتها، وقد استخدم هذا السلاح عدة مرات في الماضي، وحقق نتائج مفيدة لموسكو).

✧ الانفتاح بشكل أكبر، والاستعداد الجاد لتقديم الدعم المطلوب لأي أنظمة حليفة للولايات المتحدة تقليدياً، وتعاني علاقاتها مع واشنطن جفاءً أو خلافات. كانت موسكو حريصة، طوال السنوات الماضية، ألا تقدم دعماً لحلفاء الولايات المتحدة عندما تسوء علاقتهم بها بشكل يستفزها؛ على أمل أن تحترم الأخيرة، عبر هذا التوجه الروسي، مصالح موسكو في مناطق نفوذها، ويتوقع أن تتخلى عن هذه السياسة "المتحفظة".

✧ إثارة الفوضى في جميع مناطق النزاع المهمة للغرب، وزيادة دعمها للمناوئين أو "المتعبيين" للسياسة الغربية في ليبيا وإفريقيا عامة، واستغلال قضية اللاجئين وتدفعهم على أوروبا لمزيد من زعزعة استقرار بلدان القارة، ومهاجمة النظام الليبرالي الغربي، واستخدام بلدان حليفة، مثل بيلاروس، لتكون معبراً للاجئين، والتغاضي عن بعض التجاوزات التركية لمنح الأخيرة قدرة أكبر على ابتزاز الغرب، ووضعه تحت ضغوط متعددة.

✧ تقديم مزيد من الدعم لجمهورية «صرب البوسنة»، وللقوميين الصرب المناهضين لاستقلال كوسوفو لزعزعة الأوضاع في شبه جزيرة البلقان، وتعطيل خطط الناتو لضم البوسنة والهرسك إلى الحلف، وفتح جبهة توتر جديدة في داخل أوروبا.

✧ استغلال الشتات الروسي لدعم سياسات روسيا، وبالتحديد في (أوكرانيا، ومولدوفا، ولاتفيا، وإستونيا)، وباقي البلدان الأخرى، حيث يقدر عددهم- وفقاً للبيانات الرسمية لعام 2015-

بنحو (26.4) مليون شخص في الجمهوريات السوفيتية السابقة، وهؤلاء يتعرضون لضغوط كثيرة في البلدان التي يحملون جنسيتها؛ نتيجة تمسكهم بلغتهم الروسية، وهو ما عزز من مشاعرهم القومية التي تشهد تصاعداً في الفترة الماضية، مع دعم إعلامي وسياسي روسي لهم، وضمن "حقوقهم" في تعديلات الدستور الروسي الأخيرة، والتزام الدولة الروسية بأن "تدافع" عن مصالحهم القومية، واعتبارها مسؤولية عنهم¹⁴.

استفزاز الولايات المتحدة، وإثارة قلق مسؤوليها السياسيين والعسكريين؛ عبر الوجود العسكري في بلدان مناوئة للسياسة الأمريكية في الكاريبي وأمريكا اللاتينية، وبالتحديد كوبا وفنزويلا، وقد سبق أن أرسلت روسيا، عام 2018، قاذفات القنابل الإستراتيجية فوق الصوتية من طراز توبوليف تي يو-160 التي تسمى "البجعة البيضاء" (Tupolev Tu-160) إلى فنزويلا في مهمات تدريبية¹⁵، ويتوقع أن تزداد هذه المهام في الفترة القادمة، وقد كان نائب وزير الخارجية الروسي سيرغي ريبكوف قد صرح بأنه "لا يمكنه استبعاد إرسال بلاده قوات أو أسلحة إلى كوبا وفنزويلا إذا واصلت الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي مساعدتهما العسكرية لأوكرانيا"¹⁶.

على الرغم مما يبدو تحالفاً بين موسكو وطهران في سوريا، فإن كلا الطرفين لديه منطلقات مختلفة، وقد يحدث تصادم ما بينهما في المستقبل، أما في الوقت الحاضر فترى موسكو أن الوجود

الإيراني مزعج ومقلق للولايات المتحدة وحلفائها، وعلى رأسهم إسرائيل، وتستغله كورقة ضغط ومساومة، في بعض الأحيان، إن لم يكن أغلبها، تسمح لإسرائيل عبر تنسيق ما معها بضرب قواعد إيران وحلفائها في سوريا، بما يضمن أمنها، ولا يجعل من هذا الوجود عائقاً في المستقبل لأي تسوية في سوريا، ولكنها- من جانب آخر- قد تسمح له بالتمدد للضغط على إسرائيل لكي تتدخل بنفوذها في واشنطن للحصول على مكاسب ما، ويتوقع أن تستخدم هذه الورقة بشكل أكبر مع عدم وجود عجلة روسية في التوصل إلى تسوية نهائية بعدما حققت أهدافها الإستراتيجية الأساسية في سوريا.

أخيراً، مضى زمن تمدد الناتو وتوسعه شرقاً بلا ثمن باهظ يدفعه نتيجة هذا التمدد، وهو ما عبّر عنه المسؤولون الروس في ظل شعور موسكو بأنها باتت في موقع قوة أكبر مما كانت عليه في السابق، والغرب في وضع أضعف مما كان عليه عشية تفكك الاتحاد السوفيتي.

الاستنتاجات

تأسس حلف شمال الأطلسي (الناتو) ليكون كيانًا عسكريًا عصريًا للحضارة الغربية بزعامة أنجلوسكسونية لمواجهة قدرات روسيا على التوسع، حيث يرونها تنتمي إلى حضارة شرقية وغربية عن الغرب المسيحي-البروتستانتية؛ كامتداد للصراع التاريخي بين روسيا والغرب منذ تأسيس «روسيا القيصرية» عام 1547.

بعد تفكك الاتحاد السوفيتي عام 1991، ظن البعض، ومنهم الروس أنفسهم، أن مهمة حلف الناتو قد انتهت، وأنه سيتفكك عاجلاً أو آجلاً، أو ستتغير وظيفته، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى تعاون روسي معه، أو حتى الانضمام إليه، ولكن بدلاً من ذلك، توسع الحلف حتى بات أقرب ما يكون إلى حدود روسيا، وأدرك العقل السياسي الروسي أخيراً أن الحلف منظمة عسكرية-سياسية، ذات بُعد حضاري وثقافي، دوره "حشر" روسيا داخل حدودها، وإنهاء دورها التوسعي الذي استمر- بشكل دوري- طيلة القرون الخمسة الماضية.

وينستون تشرشل، المحافظ سليل الإمبراطورية البريطانية، كان أكثر المتحمسين لتأسيس حلف عسكري-سياسي لمواجهة روسيا، واضطلع البريطانيون بالدور الأبرز ليس فقط في الدعوة إلى تأسيس الحلف؛ بل المحافظة عليه حتى بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، ويعود ذلك إلى الخبرة البريطانية في التعامل مع الروس، والتنافس الطويل الأمد بين

كلا الطرفين في أوروبا وآسيا، وورثت الولايات المتحدة منهم هذه العقيدة.

باءت جميع المحاولات السوفيتية المبكرة للانضمام إلى الناتو بالفشل، مع أنها كانت "مناورة" أكثر منها رغبة جادة في الانضمام إليه، وكانت تهدف إلى تحييده. وكذلك لاقت محاولات يلتسن وبوتين في سنوات حكمه الخمسة الأولى المصير نفسه، مع أنها كانت محاولة جادة تهدف إلى خلق شراكة مع الغرب لطالما طمحت إليها موسكو عبر تاريخها، ولكنها قوبلت دومًا بالازدراء من الغربيين الذين يرون الروس في مرتبة أقل منهم.

يوجد كثير من القضايا الخلافية بين السياسيين والمفكرين والأحزاب في روسيا، ولكن مسألة توسع الناتو شرقًا، خاصةً بعد مرور ثلاثة عقود على تفكك الاتحاد السوفيتي، خلقت وعيًا شعبيًا ونخبويًا بأن المسألة تكمن في موقف الغرب "العدائي" تجاه روسيا، ولا علاقة لها بالأيديولوجية الشيوعية التي ظن بعضهم أنها مصدر الخلاف الرئيسي مع الغرب، وأن هذا الخلاف سيزول بزوال الاتحاد السوفيتي من الوجود؛ لذلك، لا يتوقف الأمر عند بوتين، ولا يسع أي قيادة روسية أخرى، مهما كانت أيديولوجيتها، أن تقبل بهذا التوسع.

الإمبراطورية ليست مجرد حلم أو فكرة؛ بل عقيدة حاكمة على العقل السياسي الروسي من أقصى اليمين إلى اليسار، ربما الاختلاف في ماهية هذه الإمبراطورية وشكلها، والفكرة التي ستبناها، ولكن الجميع

في عقيدة الإمبراطورية سواء، حتى أناتولي تشوبايس، رئيس الإدارة الرئاسية سابقًا، والمعاون الأقرب للرئيس الأسبق يلتسن، والمتهم من القوميين والمحافظين والشيوعيين بأنه "عميل" للغرب، تبنى من عام 2003، حتى الآن، «العقيدة الإمبراطورية» لروسيا، وعدم إمكانية انضمامها إلى الناتو، أو الاتحاد الأوروبي، وطرح بدلًا من ذلك بناء "إمبراطورية ليبرالية" ذات خصائص روسية، تضم جميع بلدان الاتحاد السوفيتي السابق، وبالأساس روسيا، وبيلاروس، وأوكرانيا، وكازاخستان؛ لخلق قطب عالمي إلى جوار أمريكا والصين وأوروبا واليابان، واعتبر بناء الإمبراطورية مهمة الاتحاد الروسي الأساسية التي ينبغي أن ينجزها عام 2023¹⁷.

يحلم العقل السياسي الروسي المحافظ، ذو اليد العليا في رسم الأيديولوجية الحالية للكرملين، والمتحالف مع الأوليغارشية "الوطنية" (أي الموالية لخط الرئيس بوتين، ومصالح روسيا وفقًا لرؤيته على الرغم من فسادها)، وكذلك من يوصفون بالبراغماتيين، بالسيطرة على أوراسيا بمفهومها الروسي (بلدان الاتحاد السوفيتي السابق)، وبناء فضاء جيوسياسي اقتصادي عسكري بقيادة موسكو تحت مظلة الاتحاد الاقتصادي الأوراسي (EAEU) بعد تطويره، وتخليص أوروبا من النفوذ الأمريكي، وبناء تحالف مع فرنسا وألمانيا، بوصفهما قوتين عسكريتين واقتصاديتين، تتوليان مركز القيادة في أوروبا الغربية؛ ليتكامل الاتحاد الأوروبي بزعامتهما مع الاتحاد الأورسي بزعامة موسكو، وتوحيد أوروبا بكاملها وفق مشروع عالم يسمى «محور

لشبونة- فلاديفوستوك» من المحيط الأطلسي غربًا إلى المحيط الهادئ شرقًا؛ ليدر كلا الطرفين هذه المساحة بكاملها، وإعادة هيكلة شؤون منطقة الشرق الأوسط، وحماية أوروبا من موجات اللاجئين وخطر ما يسمى "الإرهاب الإسلامي"، وضمان بقاء أوروبا بثقافتها المسيحية، ووضع حد للتمدد الصيني الذي يمكن أن يبتلع الجميع، ثم بعد ذلك تدخل روسيا- وفق هذه النظرية- مرحلة من الاستقرار والانفتاح والرخاء الاقتصادي، وإعمار سيبيريا، والتغلب على الخلل الديمغرافي الذي تعانیه؛ من خلال جمع شعوب أوروبا الشرقية كافة تحت مظلة موسكو، وهم السلاف في غالبيتهم قوميًا، وأكثرهم أرثوذكس في عقيدتهم، ويسهل عليهم تعلم الروسية، وهكذا تظل "روسيا المقدسة"، وريثة بيزنطة "روما الثالثة"، تقوم بمهمتها الحضارية وفقًا لهذا المعتقد الذي عبّر عنه الكثيرون، لعل أبرزهم الفيلسوف ألكسندر دوغين، في كتابه الشهير «أسس الجيوبوليتيكا.. مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي»¹⁸، ويشاطر الروس بعض الأوروبيين هذا التصور، لا سيما أحزاب أقصى اليمين واليسار، ويدلون على صوابية رؤيتهم هذه من خلال الاستشهاد بالمستشار الأول للرايخ الألماني الثاني، أوتو فون بسمارك (1815-1898)، الذي رأى في روسيا حليفًا منطقيًا لألمانيا، وأطلق عبارته الشهيرة "لا عدو لألمانيا من ناحية الشرق"¹⁹، وكان يعني بذلك روسيا، إلى جانب الجنرال شارل ديغول (1890-1970) صاحب المشروع المسمى «الاتفاق الكبير»، الذي رأى فيه مستقبل "أوروبا الكبرى" موحدة من "لشبونة إلى جبال الأورال"²⁰، وقد أعاد الرئيس

الفرنسي ماكرون طرح مشروع ديغول، ولكن بصيغة أخرى، عندما قال عام 2019، في استقبال الرئيس الروسي، إنه يؤمن بأن "أوروبا ينبغي أن تكون موحدة من لشبونة إلى فلاديفوستوك، وإن روسيا جزء لا يتجزأ من أوروبا"²¹.



خريطة محور لشبونة- فلاديفوستوك لتوحيد الكتلة الأوراسية والأوروبية

توجد "نظرية أمريكية" يتبناها كثيرون في أوروبا أيضًا، قائمة على تخيل أن سياسة روسيا "العدوانية" تجاه أوكرانيا وغيرها من بلدان أوروبا الشرقية تضعف من تأثير روسيا، ورابطة اللغة والثقافة والتاريخ بين موسكو وبقية الشعوب السلافية الأخرى. تبدو هذه النظرية رغبوية أكثر منها واقعية! من الواضح أن لروسيا بوتين سياسة يمينية تعتمد على القوة الخشنة تجاه هذه البلدان، ولا تولي أي أهمية لما تسمى "القوى الناعمة"، ولذلك التصرف أصل في الثقافة السلافية، وشخصية بوتين نفسه وتكوينه، الذي جعل من عام 2020، عامًا احتفاليًا لا مثيل

له بمناسبة الذكرى المئتين لميلاد دوستوفسكي، كاتبه المفضل، وقد كتب الأخير في كتابه الشهير دنيغنيك بيساتيللا (Дневник писателя)، الذي يعني بالعربية "مذكرات كاتب"، في الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر (1877)، خواطره عن ضرورة بناء روسيا «إمبراطورية سلاوية»، وكيفية التعامل مع السلاف، وقد جاء في ذلك الكتاب ما يلي: "لم يكن لروسيا، ولن يكون لديها أبدًا مثل هؤلاء الكارهين والحاسدين والمفترين، بل حتى الأعداء الواضحين مثل هذه الجماعات السلافية، التي فور أن تحررهم ينقلبون عليها، ويدعون أنه لا فضل لها في ذلك، وأنهم يريدون الالتحاق بأوروبا لتحررهم من نير روسيا واستعبادها وإمكانية ابتلاعهم من جديد، مدعين أنهم والروس سلاف، ولكن الروس ينتمون إلى فرع آخر من السلاف الجشعين الماكين، وليسوا سلافًا أنقياء مثلهم". كما تنبأ بأنهم: "سيعملون بكل ما لديهم من قوة لتشويه صورة روسيا لينالوا بذلك استحسان أوروبا، ولكن على روسيا سحق هذه القلة من السلاف المنتفعين، ومع الوقت ستدرك الأغلبية أن أوروبا عدو لوحدتهم، ووحدتها روسيا شقيقتهم الكبرى وناصرتهم زمن الكوارث، وسيعودون إليها من جديد"²². وفق هذا المبدأ يتعامل بوتين مع هذه البلدان وحكوماتها، ويدرك جيدًا ماذا يفعل؛ لفهمه لتلك النخبة السلافية التي لا تؤمن بما يسمى "الوفاء"، أو "القوى الناعمة"، ولا ولاء لها- على الحقيقة- لسوى من يمتلك القوة.

روسيا بلا أوكرانيا لا يمكنها إتمام مشروعها الأوراسي، ولا إمكانية لديها لبناء قوة عظمى حقيقية، وانفصال أحد البلدين عن الآخر يعني محو جزء رئيسي من تاريخ روسيا السياسي والروحي. ومع أن تلك المعركة الحالية أكبر من أوكرانيا، ومن ضمها المستبعد- إلى حد بعيد- إلى حلف الناتو، أو الاتحاد الأوروبي، بل من توسع الناتو نفسه؛ فإن الأمر يتعلق بمستقبل منطقة أوراسيا، ومن ستكون له اليد العليا فيها- روسيا أم الغرب؟

في ظل ما يتردد عن تراجع قيمة منطقة الشرق الأوسط، وقوة الصين الاقتصادية وارتباطها مع الغرب والولايات المتحدة الأمريكية بعلاقات اقتصادية عضوية، والرغبة الغربية في ضبط النمو الصيني والتحكم في وتيرته لا القضاء عليه، تظل منطقة أوراسيا هي "الجائزة الكبرى"، والفضاء الجديد الذي تطمح الرأسمالية الغربية إلى السيطرة عليه؛ لما تمتلكه تلك المنطقة من موارد طبيعية ضخمة، ومساحة شاسعة للزراعة والاستيطان، وعدد سكاني كبير، وموقع إستراتيجي فريد بين أوروبا وآسيا، متصل بالشرقين الأوسط والأقصى ومفتوح على إفريقيا، وبنية تحتية بحاجة إلى إعادة بنائها من الصفر تقريباً، وشعوب لديها قدر مناسب من التعليم والكفاءة، وهو ما دعا مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق زبغنيو بريجنسكي (1928-2017)، للقول: "أوراسيا هي مركز العالم الجديد، ومن يسيطر عليها يسيطر على العالم كله، حيث يوجد فيها منطقتان من مناطق العالم الثلاث الأكثر تقدماً والأوفر في مجال الإنتاجية الاقتصادية. تكفي نظرة واحدة إلى الخريطة

لاكتشاف أن بسط السيطرة عليها، ومعها أوروبا، سيتبعه تلقائيًا إخضاع إفريقيا؛ ومن ثم فإن أوراسيا هي رقعة الشطرنج التي ستشهد الصراع المقبل من أجل السيادة العالمية²³، وروسيا تدرك ذلك الأمر جيدًا، وتود استغلال الظرف الحالي الذي يشهد ارتباكًا للسياسة الغربية؛ للحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب لضمان دورها القيادي في هذا الفضاء الاقتصادي والسكاني الضخم المجاور لها.



خريطة أوراسيا وفق تصور بريجنسكي، التي تمثل فيها روسيا والفضاء السوفيتي السابق حجر الزاوية

لا يوجد مبرر لدى روسيا في التورط العسكري باجتياح الأراضي الأوكرانية، إلا في حال هجوم أوكرانيا أولًا على منطقة دونباس، ومن المستبعد حدوث ذلك، ولكنها ستظل تدعم المتمردين، وتحشد قواتها باستمرار على الحدود.

التحذيرات الأمريكية المتتالية من عزم روسيا غزو أوكرانيا، تبدو مبالغة مقصودة من الإدارة الأمريكية لمواجهة "المزايدين" في الداخل نتيجة الاستقطاب السياسي الحاد بين الديمقراطيين والجمهوريين، ولكبح اندفاع القوميين الأوكرانيين، وبعض السياسيين في أوروبا الشرقية والبلطيق، الذين يرغبون في مزيد من الضغط الأمريكي على روسيا. كما أن هذه المبالغة قد يكون هدفها أيضًا تسويق الموقف الأمريكي على أنه عامل "الحسم" في إيقاف روسيا، وحماية كيان الدولة الأوكرانية.

لا يتوقع أن تقبل الإدارة الأمريكية- بأي حال من الأحوال- المقترحات الروسية التي بدت في صيغة "الإنذار"؛ حيث إن في قبولها إضعافًا لتحالفاتها، وفقدانًا لثقة أعضاء حلف الناتو بضمانتها الأمنية، وفتنًا للطريق أمام الصين لضم تايوان بالقوة إذا لزم الأمر.

عامل الرد النووي المتبادل بين موسكو وواشنطن، وما يبدو مبالغة روسية في تقييم فاعلية القوة الأمريكية، والنظر إليها على أنها إمبراطورية تعاني حالة "تدهور"، وتخيّل وجود فرصة مثالية لفرض الشروط عليها، مقابل رؤية واشنطن لموسكو على أنها ليست نداء لها مع ضعفها الاقتصادي، وخروجها مهزومة في الحرب الباردة، وهو ما

لا يؤهلها لفرض شروطها، يجعل من الصعب التوصل- في الوقت الحالي- إلى ما يمكن تسميته حلًا "وسيطًا"، ولكن في الوقت نفسه، ونتيجة لوجود ردع متبادل، يبدو سيناريو حدوث حرب مباشرة بينهما مستبعدًا.

يتوقع أن تعتمد موسكو على نمط الحرب الهجينة، من خلال الهجمات السيبرانية التي يصعب تحديد مصدرها على وجه الدقة، أو لا يمكن لأجهزة الاستخبارات الأمريكية تقديم أدلة قاطعة تكشف تورط روسيا فيها حتى لا تفقد مصادر معلوماتها، مع استخدام سلاح الدعاية، ودعم جميع المناهضين للنظام الليبرالي العالمي بقيادة واشنطن، وحشد القوات على الحدود مع دول الناتو، والتحرش بقطعه البحرية وطائراته الحربية، ودعم المتمردين في الجمهوريات المعلنة من جانب واحد في جورجيا، وأوكرانيا، ومولدوفا، ودعم الحركات المتمردة الكامنة. بمعنى أدق: (جعل توسع الناتو مكلفًا، وإنهاء حالة الاستقرار التي تمتع بها طيلة العقود الثلاثة الماضية، وتحويله إلى عبء على بلدان أوروبا الشرقية، والولايات المتحدة، وألمانيا، وفرنسا).



■ دول أعضاء حلف شمال الأطلسي «الناتو»
■ دول مرشحة للانضمام للحلف

الدول الأعضاء في حلف الناتو والمرشحة لنيل العضوية والمناطق المتمردة الموالية لموسكو

يُرجَّح- إلى حد بعيد- أن تنشر روسيا منظومات صواريخ فرط صوتية على أراضي الجمهوريات المتمردة، ومنطقة كالينينغراد، وبييلاروس، وسوريا، واقترب الغواصات الروسية من السواحل الأمريكية؛ للضغط على أوروبا وأمريكا وتطويقهما؛ ردًا على محاولة حصارها داخل حدودها.

قد تتأثر منطقة الشرق الأوسط بالصراع الحالي؛ من خلال تقديم موسكو دعمًا إضافيًا للنظام الإيراني؛ مما يسهم في تعقيد مسار المفاوضات الخاصة بالبرنامج النووي مع الغرب، وتشجيعه- ومن خلفه وكلاؤه في المنطقة- على زيادة أعمالهم العدوانية، والضغط كذلك على إسرائيل من خلال الميليشيات في سوريا؛ لتبديد طاقات الولايات المتحدة في عدة صراعات متعددة في وقتٍ واحد. وإضعاف الثقة بها كقوة قادرة على حماية طلائعها.

يتوقع أن تلجأ موسكو إلى اللعب بورقة اللاجئين عبر بيلاروس، وتخفيف الضغط على تركيا في سوريا لمنح أردوغان مساحة للضغط على أوروبا وابتزازها، إلى جانب تنشيط عمل القوات المسلحة غير النظامية التابعة لشركات أمنية، مثل فاغنر في ليبيا وإفريقيا.

لا يتوقع أن تقبل حكومات كوبا وفنزويلا إقامة قواعد عسكرية روسية، أو بنية تحتية عسكرية تسمح بوجود روسي عسكري في كلا البلدين، كما أن روسيا لا تمتلك القدرات اللوجستية للقيام بهذه الخطوة، ورغم تلويح نائب وزير الخارجية الروسي سيرغي ريبكوف إلى إمكانية القيام بهذه الخطوة، فإنه لا يعدو كونه تصريحًا هدفه الاستفزاز، وربما تكتفي روسيا بإرسال قاذفاتها الإستراتيجية لكلا البلدين كما فعلت من قبل مع فنزويلا، في إطار حرب الدعاية والضغط المتبادلة بين الطرفين.

تشهد منطقة البلقان بوادر صراع جديد، وحماسة لدى صرب البوسنة في إعلان استقلالهم على غرار كوسوفو، ويمكن لإشارة روسية بتوفير

الدعم لهم أن تدفعهم نحو التحرك، وفتح المجال أمام صراع جديد يرهق الناتو وأوروبا في البلقان.

باختصار، ستسعى موسكو إلى توسيع نطاق الفوضى في العالم، وإرهاق حلف الناتو، وجعل توسعه، بل بقائه على حاله، مكلفًا، وإنهاء حالة الاسترخاء التي تمتع بها منذ تفكك الاتحاد السوفيتي.

لا مجال لتراجع روسيا دون الحصول على أي مكسب، ولا يبدو أن الولايات المتحدة مستعدة لتقديم أي ضمانات "قانونية" بعدم توسع الناتو شرقًا، وإذا ظل الغرب يمد أوكرانيا بالأسلحة الهجومية الحديثة، فإن موسكو قد تدفع حلفاءها- في نهاية المطاف- إلى القيام باستفزاز ما للقوات الأوكرانية لدفعها نحو الاصطدام بهم، وبدء حرب محدودة بين المتمردين والجيش الأوكراني، تفضي إلى اعتراف موسكو باستقلال دونيتسك ولوغانسك، وقبول انضمامهما إلى روسيا، إلى جانب المناطق الأخرى المتنازع عليها في جورجيا ومولدوفا؛ لخلق منطقة عازلة بين الناتو وروسيا، وتحويل هذه البلدان إلى كيانات فاشلة تمثل عبئًا على الغرب أكثر منها مكسبًا.

الأرجح هو أن ترد الولايات المتحدة على الطلبات الروسية ردًا "تقنيًا"؛ أي بحث المخاوف الروسية، ومحاولة تخفيضها من خلال تقديم عرض يقيد من حجم المناورات العسكرية التي يجريها الناتو بالقرب من حدودها وطبيعتها، وعدم تسليم أسلحة هجومية لجورجيا وأوكرانيا، وعدم ضم كلا البلدين إلى الحلف إلا من خلال متطلبات لوجستية

يصعب توافرها، دون تقديم ضمانات "قانونية"، أو الإعلان صراحةً عن عدم قبولهما في الحلف، أو توقفه عن ضم أعضاء جدد.

الرد الأمريكي المتوقع، إذا قررت روسيا- لأي من الأسباب السابق ذكرها- ضم بعض المناطق المتمردة في محيطها السوقي السابق، هو مزيد من العقوبات الاقتصادية، التي قد تصل إلى فصل روسيا عن نظام "سويفت" الدولي للتعاملات المصرفية، وفرض عقوبات على شخصيات سياسية واقتصادية، ولكن هذه الخطوة لا يتوقع أن تؤدي إلى تغيير في سياسات موسكو؛ بل على العكس من ذلك، ستوفر العقوبات مخرجًا للرئيس بوتين من مواجهة المطالب الداخلية الخاصة بالأوضاع الاقتصادية الصعبة، والادعاء بأن الغرب الذي لا يريد لروسيا "النهوض" من جديد هو المتسبب في كل أزمات البلاد لكي تخضع؛ وهنا تقع الولايات المتحدة في سوء تقدير لرد فعل الشعب الروسي، وتخيل قيامه بثورة أو تمرد على الكرملين؛ لأن الشعب الروسي يتمسك بقيادته، حتى لو كانت فاسدة، ما دامت في مواجهة، أما في حالة الهدوء والتعايش السلمي مع الغرب، وغياب التحديات الخارجية، فالأمر مختلف، وتزداد مطالبه بتحسين الأوضاع المعيشية، وقابليته للتمرد على السلطة. ربما الأمر ليس بالضرورة سوء فهم أمريكي بقدر ما هو الحاجة إلى الرد وقلة الخيارات. كما أن فصل روسيا من نظام "سويفت" سيخلق أزمة للأوروبيين المعتمدين على الغاز الروسي اعتمادًا كبيرًا، وكذلك سيدفع في اتجاه البحث عن بديل عن هذا النظام المصرفي، ويتوقع أن تتمكن روسيا من تجاوز الأزمة في النهاية رغم الخسائر التي

ستلحق بها، ويشاع على نطاق عريض في الداخل الروسي أن هناك مخططًا مسبقًا لمواجهة مثل هذا الإجراء مع الصين. أخيرًا، قيام الولايات المتحدة بهذه الخطوة يمثل مخاطرة كبيرة بمكانتها المهيمنة على النظام المصرفي الدولي، وكذلك العولمة في ذاتها كفكرة.

ستسعى روسيا إلى الانفتاح على طفاء الولايات المتحدة التقليديين، وتنهي سياسة "التحفظ" في وضع حدود للتعاون معهم، وكذلك ستحافظ على تعاونها مع خصومهم، على غرار علاقاتها في منطقة الشرق الأوسط؛ في محاولة منها لتعقيد علاقات واشنطن مع الحلفاء، وتفريق طاقاتها حول العالم في عدة نزاعات، ولتبدو موسكو أيضًا أنها الطرف القادر على صنع التوافقات بين المختلفين؛ ومن هنا يمكن فهم تصريح وزير الخارجية لاقروث، الذي قال فيه: "من أولويات روسيا عقد مؤتمر إيراني-عربي ستشمل أجندته قضايا المنطقة"²⁴.

تبدو أوروبا في الوضع الحالي بين المطرقة والسندان؛ بين حليف أمريكي لم يعد موثوقًا به، وعلاقات مهمة مع روسيا الأقرب جغرافيًا للأوروبيين مع خشيتهم منها؛ ولذلك يتوقع أن تبذل ألمانيا وفرنسا-على وجه التحديد- جهودًا حثيثة للعودة إلى الهدوء، والجمع بين موسكو وكيف، ورفض أي طلبات أوكرانية بتزويدها بأسلحة، ولو دفاعية، لتجنب مزيد من استفزاز روسيا. في المقابل، تضغط موسكو على أوروبا بشكل يبدو قاسيًا، مستغلة وجود حكومة ائتلافية غير قوية في ألمانيا، وقرب موعد الانتخابات الفرنسية، وخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، مع الأزمات التي تعانيها حكومة جونسون، وحالة

الإرهاق التي تعانيها أوروبا نتيجة التراجع الاقتصادي، وموجات اللاجئين، وتنامي قوى "التطرف" اليميني واليساري.

لا يتوقع أن تستخدم روسيا ورقة الغاز المصدر إلى أوروبا. يمثل هذا الأمر خطورة على أهم صادراتها التي توفر لها المورد الأول لخزانتها، وقد حرصت منذ نهاية ستينيات القرن الماضي، عندما بدأت بتصدير الغاز إلى ألمانيا الغربية آنذاك خلال الحقبة السوفيتية، ورغم كل صراعات الحرب الباردة، وتحالفها مع ألمانيا الشرقية، حرصت على ألا تستخدم ورقة الغاز- ولو مرة واحدة- وألا تلوح بإمكانية إيقاف توريده. ما يهم روسيا في هذا الملف ثلاثة أمور رئيسية؛ أولاً: عدم إلزامها بضرورة مرور خطوط الغاز إلى أوروبا عبر أوكرانيا؛ لتعاقبها على أحداث الميدان الأوروبي عام 2014، وقد نجحت في هذا الأمر، وقبلت ألمانيا والدانمارك مرور خط «نورد ستريم - 2» عبر بحر البaltic؛ ثانياً: تشغيل الخط وعزله عن أي مشكلات سياسية، ويبدو أنها في طريقها إلى تحقيق هذا الهدف أيضاً، وإذا حدث وقررت أن تمارس ضغطاً ربما ستقلل من تدفقات الغاز، متذرعة بمشكلات "لوجستية"، لتسريع تشغيل الخط الجديد؛ ثالثاً: ربط كل المستهلكين المستهدفين لروسيا، من الصين في الشرق الأقصى إلى أقصى غرب أوروبا، بخطوط غاز طبيعي روسية، وفقاً لخطة المعلنة (2030) لتأمين أسواق صادراتها من الطاقة. في المقابل، يظل الغاز الروسي الأرخص والأكثر سهولة في وصوله إلى ألمانيا، ومنها إلى أوروبا، وقد اختبرت برلين جدياً موسكو في هذا الملف على مدار نصف قرن من التعاون المشترك.



خط نورد ستريم - 2، الذي يمر عبر بحر البلطيق بين روسيا وألمانيا

تنظر بكين إلى الأحداث الحالية باهتمام كبير، وتشكل لها هذه الأزمة فرصة مثالية لإشغال الولايات المتحدة وطفائها عن التفرغ لها، وخروج روسيا بأي مكاسب منها سيُنظر إليه صينيًا على أنه مكسب لها يمكن أن يسهم في تحقيق متطلباتها الأمنية والجيوسياسية في محيطها، إلى جانب العلاقة الخاصة التي تربط بين القيادتين الصينية والروسية، المبنية على رؤية مشتركة بشأن عالم متعدد الأقطاب؛ ولذلك يتوقع أن تنهض بكين لمساندة موسكو اقتصاديًا حال تعرضها لأي عقوبات جديدة.

ختامًا، هناك إدراك روسي بأن "الصراع" مع الولايات المتحدة والناتو بشأن بناء قواعد جديدة للأمن في أوروبا، وعدم قبول موسكو لقواعد النظام الدولي ما بعد الحرب الباردة، ولمن ستكون السيادة على أوراسيا، قد بدأ بشكل جاد، وأن هذا الصراع ستتخلله عدة "معارك"، ولن

ينتهي بالضربة القاضية. ووفق أكثر التحليلات الروسية ترجيحًا، لا وجود لأوهام بشأن إمكانية قبول أمريكا بالشروط الروسية، وأن هذه العملية ستحتاج إلى مزيد من الوقت لتحقيق روسيا أهدافها الرئيسية، وأن الوقت سيكون في النهاية لصالحها. في المقابل، تعتقد واشنطن أن المطلوب- في الوقت الحالي- استهلاك الوقت بالتفاوض مع موسكو، وعدم الانجرار إلى أي استفزاز يسمح لها باتخاذ خطوات على الأرض. يصعب الرد عليها، معتقدة أن الأوضاع ستتغير مع الوقت لصالحها. وفي ظل رهان كلا الطرفين على عامل الوقت، يتوقع أن يكون التصعيد دون صدام سيد المشهد في الفترة المقبلة، وتقديم كل طرف لبعض التنازلات تدريجيًا لتجنب المواجهة الشاملة؛ على أمل أن يحسم الوقت ما لا يمكن حسمه دفعة واحدة؛ حيث إن الصراع بين الطرفين- كما تم شرحه- لا يخص أوكرانيا ولا الناتو؛ بل مستقبل أهم منطقة في العالم في المرحلة المقبلة، والنظام العالمي ما بعد الحرب الباردة، وإلا فإن لدى موسكو بدائل وخيارات كثيرة من الناحية العسكرية، حتى لو توسع الناتو شرقًا، وضم جورجيا وأوكرانيا.

- ¹ Relations with Russia - NATO - 13 Jan. 2022, https://www.nato.int/cps/en/natolive/topics_50090.htm
- ² Churchill delivers Iron Curtain speech - March 05, 1946 - HISTORY, A&E Television Networks, <https://www.history.com/this-day-in-history/churchill-delivers-iron-curtain-speech>
- ³ Вопросы борьбы в русской истории - Андрей Фурсов - Bourabai, <http://bourabai.ru/library/andrey-fursov-voprosy-borby-v-russkoy-istorii.html>
- ⁴ 70 лет НАТО. Как альянс отвергал все попытки Москвы вступить в организацию - ДУБРОВИН Денис - TASS - 4 АПР 2019, <https://tass.ru/opinions/6295299>
- ⁵ The Back Channel – William Burns – Page 50.
- ⁶ Relations with Russia - Evolution of relations - NATO - 13 Jan. 2022, https://www.nato.int/cps/en/natolive/topics_50090.htm
- ⁷ About NRC - NATO, <https://www.nato.int/nrc-website/en/about/index.html>
- ⁸ Смогут ли Россия и США выработать новые правила игры без острого военно-политического кризиса? - ДМИТРИЙ СУСЛОВ - Россия в глобальной политике - 13.01.2022, <https://globalaffairs.ru/articles/rossiya-i-ssha-novye-pravila-igrы/>
- ⁹ АЛЕКСАНДР КОЛБИН - Россия в глобальной политике - 12.01.2022, <https://globalaffairs.ru/articles/prostranstvo-bezopasnosti/>
- ¹⁰ Разговор по существу - ФЁДОР ЛУКЬЯНОВ - 12.01.2022 - Россия в глобальной политике - 12.01.2022, <https://globalaffairs.ru/articles/razgovor-po-sushhestvu/>
- ¹¹ Новый Заключительный акт: шансы есть? - Россия в глобальной политике - ДМИТРИЙ НОВИКОВ - 09.01.2022, <https://globalaffairs.ru/articles/novye-helsinki/>
- ¹² Россия может сразу ответить Западу стратегией непрямых действий - Институт Русских стратегий - 15 янв 2022, <https://russtrat.ru/news/15-yanvarya-2022-1800-8151>
- ¹³ Год без стеснения - Россия в глобальной политике - ДМИТРИЙ СТЕФАНОВИЧ - 11.01.2022, <https://globalaffairs.ru/articles/god-bez-stesneniya/>
- ¹⁴ Путин видит в диаспоре проводника интересов Кремля - BBC - 5 ноября 2015, https://www.bbc.com/russian/russia/2015/11/151105_putin_russian_diaspora
- ¹⁵ Two Russian Air Force Tupolev Tu-160 strategic long-range heavy supersonic bombers 'Nikolay Kuznetsov', 'Vasilij Reshetnikov' at Maiquetia Airport, Venezuela - Military Advisor - December 10, 2018, <https://twitter.com/miladvisor/status/1072241569942724609>
- ¹⁶ U.S. pledges "decisive" response if Russia deploys military in Cuba, Venezuela over Ukraine crisis - WLRN-FM - January 13, 2022, <https://www.wlrn.org/news/2022-01-13/u-s-pledges-decisive-response-if-russia-deploys-military-in-cuba-venezuela-over-ukraine-crisis>
- ¹⁷ Основная задача РФ - построение либеральной империи - А. Чубайс - РБК - 25 сен 2003, <https://www.rbc.ru/politics/25/09/2003/5703b59a9a7947783a5a4b6c>
- ¹⁸ كتاب أسس الجيوبولتيكا، مستقبل روسيا الجيوبولتيكي- ألكسندر دوغين- الإمبراطورية الأوروبية والأوراسية. الصفحة 265
- ¹⁹ Bismarck and Germany's pro-Russia lobby - By: Gustav Gressel - The European Council on Foreign Relations - 7 April 2015, https://ecfr.eu/article/commentary_note_from_berlin_bismarck_and_germanys_pro-russia_lobby311646/
- ²⁰ De Gaulle and Europe: Historical Revision and Social Science Theory - By: Andrew Moravcsik - Harvard University, http://aei.pitt.edu/39396/1/PSGE_WP8_5.pdf
- ²¹ Presidents of Russia and France made press statements and answered media questions - By: Bormes-les-Mimosas - Kremlin - August 19, 2019, <http://en.kremlin.ru/events/president/news/page/149>
- ²² Глазами Достоевского - Ф.М. Достоевский. Дневник писателя, сентябрь-декабрь 1877 г - Российская газета - 05.12.2013, <https://rg.ru/2013/12/05/dostoevsky.html>
- ²³ THE GRAND CHESSBOARD - By: ZBIGNIEW BRZEZINSKI - Library of Congress, 1997 - Page 04, https://www.cia.gov/library/abbottabad-compound/36/36669B7894E857AC4F3445EA646BFFE1_Zbigniew_Brezinski_-_The_Grand_ChessBoard.doc.pdf
- ²⁴ من أولويات روسيا عقد مؤتمر إيراني- عربي سيشتمل أجنده قضايا المنطقة- المؤتمر الصحفي السنوي لوزير الخارجية الروسي- روسيا اليوم- 14 يناير 2022, https://arabic.rt.com/middle_east/1314213-%D9%84%D8%A7%D9%81%D8%B1%D9%88%D9%81-%D8%A3%D9%88%D9%84%D9%88%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A%D8%A7-%D9%85%D8%A4%D8%AA%D9%85%D8%B1-%D8%A5%D9%8A%D8%B1%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A-%D9%82%D8%B6%D8%A7%D9%8A%D8%A7-%D9%85%D9%86%D8%B7%D9%82%D8%A9/



CAES
مركز الدراسات
العربية الأوراسية